تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم

من كتاب

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان

تأليف الشيخ العلَّامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

تنسيق:

رئيفة درويش

شعبان 1439 / مايو 2018

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد، فتحتوي هذه المذكرة على:

- تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم من كتاب **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان**، للشيخ العلَّامة **عبد الرحمن بن ناصر السعدي**، رحمه الله تعالى. وقد اعتمدت على النسخة التي تقوم بطباعتها ونشرها **دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع**، المملكة العربية السعودية.
- معاني غريب الألفاظ المتعلقة بالجزء الرابع من القرآن الكريم من كتاب **السراج في بيان غريب القرآن**، للدكتور **محمد بن عبد العزيز الخضيري**، حفظه الله تعالى.

هذا، وقد اقتصر دوري في هذا العمل على عرض المحتوى المذكور أعلاه كاملاً وبنفس ألفاظ المؤلف، وتنسيقه في شكل فقرات ونقاط متتابعة، ليسهل على الطالب حفظه ومراجعته.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم..
اللّٰهُمَّ ارزقنا الصدق والإخلاص.. اللّٰهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين أجمعين..
وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفقيرة إلى عفو ربها،

رئيفة درويش

في شعبان 1439 / مايو 2018

تابع تفسير

سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

- إِسْرَٰٓءِيلَ: هو نبي الله يعقوب بن اسحاق عليهما السلام.
- من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.
- فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام قبل نزول التوراة كان حلالاً لبني إسرائيل إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام، على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه،
- ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلاً قبل ذلك شيء كثير.
- قل لهم، إن أنكروا ذلك: فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.
- **وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره**، فإنِ انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

- أي: قل: صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً؟!
- وقد بيّن في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وبراهين دعوته، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته،
- فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال،
- فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة، فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

- بِبَكَّةَ: بمكة
- مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ: الحجر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع القواعد من البيت.
- يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام،
- وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره،
- وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير وفضل غزير،
- وأن فيه آيات بينات تُذَكِّر بمقامات إبراهيم الخليل وتنقلاته في الحج ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم،
- وفيه الأمن الذي من دخله كان آمناً قدراً مؤمناً شرعاً وديناً.

- فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها، أوجب الله حجّه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة والتي ستحدث،
- **وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ولا يمكن الصلاح التام بدونها.**
- فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

- **تَبْغُونَهَا عِوَجًا: تريدونها مائلة مُعْوَجَّة؛ اتباعًا لأهوائكم.**
- لمّا أقام فيما تقدم الحجج على أهل الكتاب، مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، وَبَّخَ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله وصدهم الخلق عن سبيل الله لأن عوامهم تبع لعلمائهم،
- والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء وأوفاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

- لمّا أقام الحجج على أهل الكتاب ووبَّخهم بكفرهم وعنادهم، حذَّر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبيَّن لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان،
- ولكن ولله الحمد أنتم يا معشر المؤمنين، بعدما منَّ الله عليكم بالدين ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله الذي هو دينه، يستحيل أن يردوكم عن دينكم؛ لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾

- **شَفَا: حافَّة.**
- هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين:
  * أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه،
  * وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك،
  * وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.
- وذكَّرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألّف بين قلوبهم وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء، ونهج

بهم طريق السعادة؛ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ، لعلكم تهتدون إلى شكر الله والتمسك بحبله. وأمرهم بتتميم هذه الحالة.

- والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم هو بأن **يتصدى منهم طائفة** يحصل فيها الكفاية، يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ، وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه، وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ، وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً، وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ، وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.
- وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ، المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب. **ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون** الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.
- **فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.**
- ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: {وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ}.
- ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم، ويمسهم هذا العذاب الأليم، فقال:

﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ ﴾

- يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة في السعادة والشقاوة،
- وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات، ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون،

- وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً، وأنهم يوبخون فيقال: أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ .

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ ﴾

- يثني تعالى على ما قصَّه على نبيه من آياته التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعده لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره.

- ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ ﴾

- ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم.
- **وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ليبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية**، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومَنْ سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩ ﴾

- ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم.

- **وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة ليبين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية**، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة، ومَنْ سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

- هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم،
- وأنهم خير الناس للناس نصحاً ومحبة للخير ودعوة وتعليماً وإرشاداً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان،
- وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم،
- ومع ذلك فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لوَلّوا الأدبار ثم لا ينصرون.
- وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين وَلّوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

- ثُقِفُوٓاْ: وُجِدُوا. - بِحَبۡلٍ: بعهدٍ - ٱلۡمَسۡكَنَةُ: فقر النفس وشُحُّها.

- هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضُربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا،
- ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالجزية، أو بحبلٍ من الناس، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدها لهم كل سبب.
- وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ: أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم بالذلة والمسكنة،
- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ: والسبب في ذلك هو كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي: ليس ذلك عن جهل وإنما هو بغي وعناد.
- ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ: تلك العقوبات المتنوعة عليهم هي بما عصوا وكانوا يعتدون، فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم هو بسبب بغيهم وعدوانهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل وجناياتهم الفظيعة.

﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ ﴾

- لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيَّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمون لأصول الدين وفروعه:
  * يؤمنون بالله واليوم الآخر،
  * ويأمرون بالمعروف وهو الخير كله،
  * وينهون عن المنكر وهو جميع الشر،
  * كما قال تعالى: {وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ} [الأعراف: **159**]،

* ويسارعون في الخيرات، **والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد على مجرد فعلها**، فهو وصف لهم بفعل الخيرات والمبادرة إليها وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

- **فَلَن يُكْفَرُوهُ: فلن يضيع عند الله.**
- وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ: ثم بيَّن تعالى أن كل ما فعلوه من خيرٍ قليل أو كثير فإن الله تعالى سيقبله حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، فلن يُكفروه، يعني لن ينكر ما عملوه ولن يُهدر.
- وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ: وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

- **صِرٌّ: بردٌ شديد.**
- بيَّن تعالى أن الكفار الذين كفروا بآيات الله وكذَّبوا رسله، أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ، ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند الله شافع،
- وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً،
- وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل، وأن مثلها كمثل حرث أصابته ريح شديدة فيها صِرٌّ (أي: برد شديد أو نار محرقة) فأهلكت ذلك الحرث،
- وذلك بظلمهم فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما ظلموا أنفسهم.

- وهذه كقوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ ... } [الأنفال:**36**].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

- لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: لا يُقَصِّرون في إفساد حالِكُم.
- وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ: أحبوا مشقتكم الشديدة.
- أُوْلَآءِ: هؤلاء.
- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا: هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرّون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين.
- وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ: فوضّح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة:
  * بأنهم لا يألونكم خبالاً، أي حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم،
  * وقد بدت البغضاء من كلامهم وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم.
- قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ:
- فإن كانت لكم فهوم وعقول، فقد وضح الله لكم أمرهم.

- هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ: وأيضاً، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين، وفي مقابلة إحسانكم؟!
- فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجلّ الكتب وأشرف الرسل،
- وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه،
- فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.
- قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ: قال تعالى: {**قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ**}، أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوءكم، وتموتون بغيظكم فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون {**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**}؛ فلذلك بيَّن لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ ﴾

- إن تمسسكم حسنة، عز ونصر وعافية وخير، تسُؤهم،
- وإن تصبكم سيئة، من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية، يفرحوا بها.
- وهذا وصف العدو الشديدة عداوته.
- لـمَّا بيَّن تعالى شدة عداوتهم، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى، وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً، فإن الله محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها،
- وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئاً فلا تشكوا في حصول ذلك.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

- غَدَوْتَ: خرجت من أول النهار. - تُبَوِّئُ: تُنَزِّل.
- **وذلك يوم "أُحُد"** حين خرج صلى الله عليه وسلم بالمسلمين حين وصل المشركون، بجمعهم، إلى قريب من "أُحُد"، فنزَّلهم صلى الله عليه وسلم منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيماً عجيباً يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في علوم السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.
- وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

- تَفْشَلَا: تجبُنا وتضعُفا.
- إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا : وهم **بنو سلمة وبنو حارثة**، لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه.
- وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ: فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.
- **وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله،**
- والتوكل: هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره.
- فلما ذكر حالهم في "أُحُد" وما جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم "بدر"؛ ليكونوا شاكرين لربهم، وليخفف هذا هذا، فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

- وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ: في عَدَدِكم وعِدَدِكم، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهْرٍ ورثاثة سلاح، وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح.

- فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الذي أنعم عليكم بنصره.

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

- إذ تقول مبشراً للمؤمنين مثبتاً لجنانهم: {أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ}.

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

- فَوْرِهِمْ هَٰذَا: ساعتِهِم هذه.
- مُسَوِّمِينَ: معلِّمين أنفسهم، وخيولهم بعلامات واضحات.
- بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا: أي: من حملتهم هذه بهذا الوجه،
- يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ: أي: معلمين علامة الشجعان.
- واختلف الناس هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، كما قاله كثير من المفسرين، ويدل عليه قوله: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

- **وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد، بل يعتمد على الله**، وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ ﴾

- يَكۡبِتَهُمۡ: يُخزيَهم.
- أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق بعد ما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ ﴾

- لما أصيب صلى الله عليه وسلم **يوم "أُحد"** وكسرت رباعيته وشج رأسه جعل يقول: «**كيف يُفلحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم وشجُّوا رَباعيتَه**»[1]، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبيَّن أن الأمر كله لله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم مدبَّرون لا مدبِّرون،
- وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول، أو تباعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم ووفقهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا، وإن شاء الله عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩ ﴾

- وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ: يخبر تعالى أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له، ويخذل من يشاء فيعذبه.

[1] أخرجه البخاري معلقاً (باب ليس لك من الأمر شيء...)، «الفتح» **(365/7)**، ووصله مسلم **(1791)**.

- وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ: فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتها في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ} [آل عمران : 132].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾

- تقدم في مقدمة هذا التفسير: أن العبدَ ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره،
- وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولاً أن يعرف حدَّه وما هو الذي أُمِر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه.
- وكذلك إذا نُهِيَ عن أمر عرف حده وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه.
- وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلـهية والنواهي.
- وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحثَّ على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهٍ حثَّ على تركها.
- **ولعل الحكمة ـ والله أعلم ـ في إدخال هذه الآيات أثناء قصة "أُحُد"** هو:
- أنه قد تقدم أن اللّهَ تعالى وَعَدَ عبادَه المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذلَ الأعداءَ عنهم، كما في قوله تعالى: {إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ}، ثم قال: {إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} الآيات، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

- **ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات:**
  * مرة مطلقة، وهي قول: {أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ}،
  * ومرتين مقيدتين فقال: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ}، {وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ}.
- فقوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}: كل ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح،
- لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ: فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدَّين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدَّين، وإما أن نزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد بذلك ما في ذمته أضعافاً مضاعفة من غير نفع وانتفاع.
- ففي قوله: {أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ}:
  * تنبيه على شدة شناعته بكثرته،
  * وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم،
  * وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ}.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾

- وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ، بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر، بل هي من خصال

الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾

- وأطيعوا الله والرسول بفعل الأوامر امتثالاً واجتناب النواهي لعلكم تُرحمون،
- فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: {وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ...} الآيات.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾

- ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها؟! أعدها الله للمتقين، فهم أهلها، وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾

- ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ: اليُسر والعُسر.
- ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ: ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: الذين ينفقون في السراء والضراء، أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل.
- وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ: أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية؛ بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

- وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ: يدخل في العفو عن الناس: العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل. والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى من الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى:{فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ} [الشورى : 40].

- وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ: ثم ذكر **حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان.**
- **والإحسان نوعان:** الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

1. **فالإحسان في عبادة الخالق:** فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:
   «**أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ**».
2. **وأما الإحسان إلى المخلوق:** فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك:

* أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر،
* وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم،
* والنصيحة لعامتهم وخاصتهم،
* والسعي في جمع كلمتهم،
* وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم،
* فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات،

- فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده.
- ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾

- وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ:

أي: إذا صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك،

- ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ: بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها،

- فلهذا قال: {وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ}.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾

- أولئك الموصوفون بتلك الصفات، جزاؤهم مغفرة من ربهم تزيل عنهم كل محذور،
- وجنات تجري من تحتها الأنهار فيها من النعيم المقيم، والبهجة والحبور والبهاء والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات،
- خالدين فيها لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً ولا يغير ما هم فيه من النعيم،
- ونعم أجر العاملين، عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً، فعند الصباح يحمَد القومُ السَّرى وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.
- **وهذه الآيات الكريمات** (من 133 – 136) **من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال تدخل في الإيمان خلافاً للمرجئة**، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات وهي قوله: {سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ } [الحديد : **21**]، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: {**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**}، ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين هم الموصوفون بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون. ثم قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

- **هذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة "أُحُد"،**
- **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**: يعزي تعالى عباده المؤمنين، ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومحاولة حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم،
- **فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ**: بأبدانكم وقلوبكم،
- **فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ، فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل، وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم؟! ولهذا قال تعالى:

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾

- **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**: أي: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، **وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين،**
- **وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم تقوم عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة.

- **ويحتمل أن الإشارة في قوله: {هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ}، للقرآن العظيم والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً.** وكلا المعنيين حق.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

- وَلَا تَهِنُوا۟: لا تَضْعُفُوا.
- **يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم:**
- وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟: أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى،
- فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم؛ بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم،
- وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ: وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي (المتيقن) ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك، ولهذا قال تعالى: {وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.
- **ثم سلّاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك فقال:**

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

- قَرْحٌ: جرح. - نُدَاوِلُهَا: نُصَرِّفُها.
- إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون، كما قال تعالى: {إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ} [النساء : 104].

- **ومن الحِكَم في ذلك:**

* ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدارَ الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة فإنها خالصة للذين آمنوا.

* ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: هذا أيضاً من الحكم، أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق، لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك،

* ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

- ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله، **وكأن في هذا تعريضاً بذم المنافقين وأنهم مبغوضون لله**، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٤١﴾

- وهذا أيضاً من الحِكَم، أن الله يمحّص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم،
- **يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله تكفر الذنوب وتزيل العيوب،** وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق.

- ومن الحِكَم أيضاً أنه يقدر ذلك ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعاجلة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ ﴾

- **هذا استفهام إنكاري**، أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب -عند أرباب البصائر- منحًا يسرون بها ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

- ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:

﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣ ﴾

- وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ: وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم.
- قال الله تعالى لهم: {فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ}: أي: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم وأنتم تنظرون، فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك.
- **وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة.**
- **ووجه الدلالة:** أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

- ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ: رَجَعْتُم عن دِينِكم.

- يقول تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ}: أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال.

- ولهذا قال: {أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ}: (انقلبتم على أعقابكم) بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد أو غير ذلك.

- قال الله تعالى: {وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا}، إنما يضر نفسه، وإلا، فالله تعالى غنيٌّ عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.

- فلما وبَّخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه، فقال: {وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ}، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

- **وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه، فَقْدُ رئيس ولو عَظُم**، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فُقِدَ أحدُهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

- **وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصدِّيق الأكبر أبي بكر وأصحابه** الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

- وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا: أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.
- وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا: ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إرادتهم، فقال: {**وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا**}، وقال الله تعالى (في موضع آخر): {**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا**} [الإسراء: **20-21**].
- وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ: ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلةً وكثرةً وحسناً.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

- رِبِّيُّونَ: جُمُوع كثيرة.
- **هذا تسلية للمؤمنين وحثٌّ على الاقتداء بهم والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً لم تزل سنة الله جارية بذلك**، فقال:
- وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ: أي: وكم من نبي،

- قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ: أي: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك،
- فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ : أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي: ذلُّوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم،
- ولهذا قال: {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ}.

﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ ﴾

- ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: {وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ}؛ أي: في تلك المواطن الصعبة،
- إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا: والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم،
- علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.
- وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ: ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة. ولهذا قال:

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ ﴾

- فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا: من النصر والظفر والغنيمة،
- وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ: وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال:

- ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين. (وفي نسخة قال: كفعل هؤلاء الموصوفين).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾

- وهذا نهيٌ من اللَّهِ للمؤمنين، أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إذا أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

- ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم.
- ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه يتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.
- وفي ضمن ذلك، الحث لهم على اتخاذه وحده وليًّا وناصراً من دون كل أحد.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

- ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾: فمن ولايته ونصره لهم: أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى،
- وذلك أن المشركين بعد ما انصرفوا من **وقعة "أُحُد"** تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهَمُّوا بذلك، فألقى اللَّهُ الرعبَ في قلوبهم فانصرفوا خائبين.

- ولا شكَّ أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن **نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطعَ طرفاً ممن كفروا، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. وهذا من الثاني.**
- ثم ذكر **السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين**، فقال:
- ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾: أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثَمَّ كان المشرك مرعوباً من المؤمنين لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة فأشد وأعظم،
- ولهذا قال:
- ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج.
- ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النارُ مثواهم.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾

- تَحُسُّونَهُم: تقتلونهم.
- فَشِلۡتُمۡ: جَبُنتم، وضَعُفتم عن القتال.

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ﴾: أي: ولقد صدقكم الله وعده بالنصر، فنصركم عليهم حتى ولّوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً حتى صرتم سبباً لأنفسكم وعوناً لأعدائكم عليكم،

- حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ: فلما حصل منكم الفشل، وهو الضعف والخور، وتنازعتم في الأمر الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف،
- فاختلفتم، فمِنْ قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم، ومِنْ قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ولم يبق محذور،
- فعصيتم الرسول وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون، وهو انخذال أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله ورسوله.
- مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا : وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب.
- وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ: وهم الذين لزموا أمر رسول الله وثبتوا حيث أُمروا.
- ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ: أي: بعد ما وُجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاءً من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر والطائع من العاصي، وليكفِّرَ الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال:
- وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ: أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث:
  * مَنَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه،
  * وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم،
  * ومن فضله على المؤمنين: أنه لا يُقَدِّرُ عليهم خيراً ولا مصيبةً إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سرَّاء فشكروا، جازاهم جزاءَ الشاكرين، وإن أصابتهم ضرَّاء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ﴾

- تُصۡعِدُونَ: تصعدون في الجبل هاربين.
- وَلَا تَلۡوُۥنَ: لا تلتفتون.
- فَأَثَٰبَكُمۡ: جازاكم.
- يُذَكِّرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال:
- إِذۡ تُصۡعِدُونَ: أي: تجِدُّون في الهرب،
- وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ: أي: لا يلوي أحدٌ منكم على أحدٍ ولا ينظر إليه؛ بل ليس لكم هَمٌّ إلا الفرار والنجاء عن القتال،
- والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويباشر الهيجاء؛ بل الرسول يدعوكم في أخراكم، أي: مما يلي القوم، يقول: «إليَّ عباد الله» [2]، فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه.
- **فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها،**
- فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ: أي: جازاكم على فعلكم غمًّا بغمٍ، أي: غمًّا يتبعه غمٌّ:
  * غمٌّ بفوات النصر وفوات الغنيمة،
  * وغمٌّ بانهزامكم،
  * وغمٌّ أنساكم كل غمٍّ وهو سماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل.

[2] انظر «تفسير الطبري» (301/7)، و«الدر المنثور» (153/2).

- ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده، جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم فقال: لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ من النصر والظفر، وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ من الهزيمة والقتل والجراح،
- إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة،
- فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: {وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ}.
- **ويحتمل أن معنى قوله: {لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ}، يعني: أنه قدَّر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم وتمَرَّنُوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات.**

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

- أَمَنَةً: أمناً وعدم خوف. - مَضَاجِعِهِمْ: مصارعهم.
- ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ الذي أصابكم، أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ،
- ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتثبيت لقلوبهم وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس،

- وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم المسلمين،
- وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ: وأما الطائفة الأخرى الذين قد أهمتهم أنفسهم، فليس لهم هَمٌّ في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم،
- يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ: **وهذا استفهام إنكاري**، أي: ما لنا من الأمر، أي: النصر والظهور شيء، فأساؤوا الظنَّ بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله. قال الله في جوابهم:
- قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ: **الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي**، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى.
- يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ: يعني المنافقين يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. ثم بيَّن الأمر الذي يخفونه فقال:
- يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا: أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ما قتلنا ههنا، وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله:
- قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ: قل لو كنتم في بيوتكم التي هي أبعد شيء عن مظان القتل، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة،
- وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ: أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان،
- وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ: وليمحص ما في قلوبكم من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة،

- وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ: أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدَّر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور. ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ ﴾

- إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ: يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحد، وما الذي أوجب لهم الفرار وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكّنوه بما فعلوا من المعاصي لأنها مركبة ومدخلة، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ} [الحجر:**42**].

- وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ: ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو آخذهم لاستأصلهم.

- إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ: إن الله غفور للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة، حليم لا يعاجل من عصاه بل يستأني به ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه، ثم إن تاب، وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب. فلله الحمد على إحسانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾

- غُزّٗى: غزاة مجاهدين.

- ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء وفي هذا الأمر الخاص وهم أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب **إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ**، أي: سافروا للتجارة، **أَوۡ كَانُواْ غُزًّى**، أي: غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: {**لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ**}، وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: {**قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ**} [آل عمران:**154**]،
- **لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ**: ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون فيهدي الله قلوبهم ويثبتها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًّا عليهم:
- **وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ**: أي: هو المتفرد (المنفرد) بذلك فلا يغني حذر عن قدر،
- **وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ**: فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

﴿ **وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧** ﴾

- ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفضٍ وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

﴿ **وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨** ﴾

- وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا، أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله ومآلهم إليه، فيجازي كلاًّ بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

- فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ: أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبوك وامتثلوا أمرك.
- وَلَوْ كُنتَ فَظًّا: أي: سيء الخُلُق،
- غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ: أي: قاسيه،
- لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ؛ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء،
- فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله؟
- فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ: ثم أمر الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه صلى الله عليه وسلم، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله فيجمع بين العفو والإحسان،
- وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ: أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر،
- فإن **في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره، منها:**
  * أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.
  * أن فيها تسميحاً لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ مَنْ له الأمرُ على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد (أو: بمستبد) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة

الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

* أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.
* ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطىء في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم.

- فإذا كان الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم - وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً -: {وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ}، فكيف بغيره؟!
- فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ: أي: فإذا عزمت على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة، فتوكل على الله: أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئاً من حولك وقوتك، إن الله يحب المتوكلين عليه اللاجئين إليه.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

- إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ: أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته فلا غالب لكم، فلو اجتمع عليكم مَنْ في أقطارها وما عندهم من العَدَد والعُدَد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.
- وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ: وإن يخذلكم ويكلكم إلى أنفسكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟! فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق، وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال:

- وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ: **تقديم المعمول يؤذن بالحصر**، أي: على الله توكلوا، لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار.
- **وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.**

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

- يَغُلَّ: يأخذ من الغنيمة قبل قِسْمَتِها.
- وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ: **الغلول: هو الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل مالٍ يتولاه الإنسان، وهو محرَّم إجماعاً، بل هو من الكبائر**، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص،
- فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول ـ كما علمت ـ من أعظم الذنوب وشر العيوب، وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم ونزّههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته، {**ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ**} [الأنعام : **124**]،
- فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: {**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ**}، أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.
- وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ: ثم ذكر الوعيد على من غلّ فقال: {**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ**}؛ أي: يأت به حامله على ظهره حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك، يعذب به يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

- ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ: الغالُّ وغيره كلٌّ يوفَّى أجره ووزره على مقدار كسبه.
- وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ: أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.
- وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة، **لمَّا ذكر عقوبة الغالِّ وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولمَّا أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان اقتصاره (الاقتصار) على الغال يوهم بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، أتى بلفظ عامٍّ جامع له ولغيره.**

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

- بَآءَ: رَجَعَ.
- أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ: يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان رَبِّه والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله، وفي فِطَر عباد الله {أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ} [السجدة : **18**]؛ ولهذا قال هنا:
- هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ: أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.
- فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم،
- والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله،
- وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ: والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

- هذه المنَّةُ التي امتنَّ الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال:
- لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ: يعرفون نسبه وحاله ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم مشفقاً عليهم،
- يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ: يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم ألفاظها ومعانيها،
- وَيُزَكِّيهِمْ: من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوىء الأخلاق،
- وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ: إما جنس الكتاب، الذي هو **القرآن**، فيكون قوله: {يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ} المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا هو **الكتابة**، فيكون قد امتنَّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ،
- وَٱلْحِكْمَةَ: الحكمة هي: **السُّنَّة**، التي هي شقيقة القرآن، أو **وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة**، فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تُنَفَّذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين،
- وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ: وإن كانوا من قبل بعثة هذا الرسول لفي ضلال مبين، لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها؛ بل ما يزين لهم (ما زيَّن لهم) جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين!

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

- أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا: هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم **يوم أُحُد** وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله إنكم قد أصبتم من المشركين مثليها (**يوم بدر**) فقتلتم سبعين من كبارهم، وأسرتم سبعين، فَلْيَهُنِ الأمرُ ولِتَخِفَّ المصيبةُ عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار،
- قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ: أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟
- قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ: قل هو من عند أنفسكم حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المردية.
- إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ: فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ذلك، ولو شاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾

- وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ: ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمعُ المسلمين وجمعُ المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه، والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدَّره لحِكَم عظيمة وفوائد جسيمة،
- وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ: وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق،

- وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ: الذين لما أمروا بالقتال وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله، أي: ذبًّا عن دين الله وحماية له وطلباً لمرضاة الله، أو ادفعوا عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن قالوا:
- قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ: أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد مُلئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟
- خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى:
- هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ: هم للكفر يومئذ: أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين أقرب منهم للإيمان،
- يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ: وهذه خاصة المنافقين يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ}، فإنهم قد علموا وقوع القتال.
- **ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما**، لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان.
- وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ: فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

- ثم قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ ﴾

- ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ: أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًّا عليهم:
- قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ: أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.
- **وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى.**

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ﴾

- **هذه الآيات الكريمات فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة**، فقال تعالى:
- وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ: أي: في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله،
- أَمۡوَٰتَۢا: أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا، وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال وزهد في الشهادة.
- بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ: بل قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم أحياء عند ربهم في دار كرامته.
- **ولفظ: عند ربهم، يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم،**

- يرزقون من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.
- ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾: ومع هذا فرحين بما آتاهم الله من فضله: أي: مغتبطين بذلك وقد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور،
- ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: وجعلوا يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم: أي: يبشر بعضهم بعضاً بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا،
- ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.
- ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾: أي: يهنيء بعضهم بعضاً بأعظم مهنأ به وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه،
- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.
- **وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.**

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

- ٱلۡقَرۡحُ: الجِراح، والألم. - حَسۡبُنَا: كافينا. - فَٱنقَلَبُواْ: رجعوا.

- ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾: لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أُحُد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد همّوا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد [3]،
- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا﴾: وجاءهم من جاءهم وقال لهم: إن الناس قد جمعوا لكم وهمُّوا باستئصالكم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه،
- ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾: أي: كافينا كل ما أهمنا، ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾: المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم.
- ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾:
- فانقلبوا ، أي: رجعوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء،
- وجاء الخبرُ المشركين: أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل، حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم،
- ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيته لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم. ثم قال تعالى:
- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: أي: إن ترهيب من رهب من المشركين - وقال: إنهم {جمعوا لكم...} - داعٍ من دعاة الشيطان يخوف بها أولياءه الذين عُدِمَ إيمانهم أو ضعف،
- ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذين ينصر أولياءه الخائفين له، المستجيبين لدعوته.

---

[3] أخرجه البخاري (4077) و (4563).

- **وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.**

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

- **وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**: كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على الخَلْق مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: {**وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**} من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه،
- **إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا**: فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم،
- **يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**: إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه؛ خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له أولياءه، ومن أراد به خيراً عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

- ثم أخبر تعالى أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه رَغْبَةَ مَنْ بذلَ ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع لن يضروا الله شيئاً؛ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: {**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**}،
- وكيف يضرون الله شيئاً وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟! فالله غني عنهم، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم، وأعد له ممن

ارتضاه لنصرته أهل البصائر والعقول وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: **{قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ...}** الآيات [الإسراء : **107**]

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨ ﴾

- نُمْلِي: نمهلهم بطول البقاء.
- وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ: أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أنَّ تركنا إياهم في هذه الحياة الدنيا وعدم استئصالنا لهم وإملائنا لهم، خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال:
- إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ: فالله تعالى يملي للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩ ﴾

- يَجْتَبِي: يصطفي.
- مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ: أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميّز، حتى يميز الخبيث

من الطيب والمؤمن من المنافق والصادق من الكاذب.

- وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ: ولم يكن في حكمته أيضاً أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده،
- فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠ ﴾

- وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ: أي: ولا يظن الذين يبخلون: أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم؛ بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم،
- سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ: أي: يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذَّبون به، كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يأخذ بلِهْزِمَتَيه** -يعني: بشِدْقَيه - **يقول: أنا مالك، أنا كنزك**» [4]، وتلا رسول الله صلى الله عليه

[4] أخرجه البخاري (1403) (4565) بلفظ آخر ومسلم (ص684، 685)، وانظر «فتح الباري» (268/3). ولمزيد من الفائدة انظر «تخريج مشكلة الفقر» (60). ولم أره باللفظ الذي ساقه المؤلف فلعله ساقه بمعناه. والله أعلم.

وسلم مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجدٍ عليهم، فانقلب عليهم الأمر وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم.

- وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ: أي: هو تعالى مالك الملك، وتردّ جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم : **40**].

- **وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب النهائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله:**

* أخبر **أولاً** أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكاً للعبد؛ بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنْعُه ذلك منْعٌ لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده، كما قال تعالى: {وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ} الآية [القصص : **77**]، فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات.

* ثم ذكر **ثانياً** أن هذا الذي بيد العباد، كلُّه يرجع إلى الله ويرثه تعالى وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

* ثم ذكر **ثالثاً** السبب الجزائي فقال: {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات والعقوبات على الشر - لم يتخلف مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزي به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

- لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ: يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعَها وأسمجَها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه،
- سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ: وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة،
- وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ: وأنه يقال لهم -بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء- : **ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ** المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة،
- ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ: وأن عذابهم ليس ظلماً من الله لهم فإنه ليس بظلام للعبيد، فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب.
- وقد ذكر المفسرون أن **هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكروا منهم "فِنحَاص بن عَازوراء" من رؤساء علماء اليهود في المدينة** [5]، وأنه لما سمع قول الله تعالى: {مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [البقرة : **245**] ، وقوله تعالى: {وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد : **18**]، قال على وجه التكبر والتجرؤ هذه المقالة، قبَّحَه الله.
- فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدعٍ من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، هذا القيد يراد به أنهم تجرؤوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلاً وضلالاً، بل تمرداً وعناداً.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

- بِقُرْبَانٍ: بصَدَقةٍ يُتَقَرَّبُ بها إلى الله.

[5] انظر «تفسير ابن جرير» (535/3)، و«الدر المنثور» (185/2)، و«العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (804/2).

- ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ: يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين {إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ}، أي: تقدم إلينا وأوصى أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فجمعوا بين الكذب على الله، وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم ملتزمون عهده،
- وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكاً لم يلتزموه وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم:
- قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ:
  * قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات الدالات على صدقهم،
  * وبالذي قلتم: بأن أتاكم بقربان تأكله النار،
  * فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين، أي: في دعواكم (في دعواهم) الإيمان برسول يأتيكم (يأتي) بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم.

- ثم سَلَّى رسولَه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ ﴾

- وَٱلزُّبُرِ: الكُتُب الكاشفة للظلمات.
- فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ: أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم، الكفر بالله وتكذيب رسل الله.
- جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ: وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور مما أتوا به أو عدم تبين حجة؛ بل قد جاءوا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ، أي: الحجج العقلية والبراهين النقلية، وَٱلزُّبُرِ، أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل، وَٱلۡكِتَٰبِ

ٱلْمُنِيرِ للأحكام الشرعية وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة.

- فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم ولا يهمنك شأنهم. ثم قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥ ﴾

- زُحْزِحَ: أُبعِدَ.

- **هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا** بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقَل عنها إلى دار القرار التي توفَّى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر.

- فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ: أي: فمن أُخرج (وأُبعد) عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- **ومفهوم الآية:** أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة فإنه لم يفز؛ بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

- **وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه**، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه. يُفهم هذا من قوله: {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ}، أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ؛ بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا، كقوله: {وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة : **21**].

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

- لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ: يخبر تعالى **ويخاطب المؤمنين**، أنهم سيبتلون:
  * **في أموالهم**: من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله،
  * **وفي أنفسهم**: من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب.
- وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا: أي: ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب والمشركين أذىً كثيراً من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم.
- **وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها:**
  * أن حكمته تعالى تقتضي ذلك ليتميز المؤمن الصادق من غيره.
  * أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير؛ ليعلي درجاتهم، ويكفّر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، {قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب:**22**].
  * أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته ويلجأون إلى الصبر والتقوى؛ ولهذا قال:
- وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟: أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان، وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه،

ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

- فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ: أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: {**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**} [فصلت : **35**].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

- **الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد**، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلَّمه العلمَ، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإنَّ كلَّ من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل.
- فأما **الموفقون**، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلَّموا الناس مما علَّمَهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفاً من إثم الكتمان.
- وأما **الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم**، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبؤوا بها، فكتموا الحق وأظهروا الباطل تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق،
- واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما يحصل لهم - إن حصل - من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق،
- فبئس ما يشترون؛ لأنه أخسّ العوض، والذي رغبوا عنه وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية أعظمُ المطالب وأجلُّها،

- فَلَمْ يختاروا الدني الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له. ثم قال تعالى:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

- **يدخل في هذه الآية الكريمة:**

* أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم،
* وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

- **ودلت الآية بمفهومها على:**

- أن من أحبَّ أن يحمدَ ويُثْنَى عليه بما فعله من الخير واتِّباع الحقّ، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه وسألوها منه،
  * كما قال إبراهيم عليه السلام: {وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ} [الشعراء:**84**]،
  * وقال: {سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ}، [الصافات:**79-80**]
  * وقد قال عباد الرحمن: {وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان:**74**]
  * وهي من نعم الباري على عبده ومننه التي تحتاج إلى شكر.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

- أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ﴾

- يخبر تعالى: إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ .
- **وفي ضمن ذلك:** حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها وتدبر خلقها.
- **(لماذا أبهم قوله: لَأٓيَٰتٖ ؟)** أبهم قوله: {**آيات**}، ولم يقل "على المطلب الفلاني":
  * إشارة لكثرتها وعمومها،
  * وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يُبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلــهية،
  * فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكِّن مخلوقاً أن يحصره ويحيط ببعضه.
  * وفي الجملة: فما فيها من **العظمة والسعة وانتظام السير والحركة**، يدل على عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته،
  * وما فيها من **الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل**، يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه،
  * وما فيها من **المنافع للخلق**، يدل على سعة رحمة الله وعموم فضله وشمول بره ووجوب شكره،
  * وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.
- **وخص الله بالآيات أولي الألباب**، وهم أهل العقول، لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾

- ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾: ثم وصف أولي الألباب بأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، **وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب،**
- ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: وأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، **ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين،** فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون:
- ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾: سبحانك عن كل ما لا يليق بجلالك؛ بل خلقتها بالحق وللحق مشتملة على الحق،
- ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: فقنا عذاب النار بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. **ويتضمن ذلك سؤال الجنة** لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة.
- ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

- ﴿وَكَفِّرۡ﴾: اسْتُر.
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾: أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال:
- ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾: ينقذونهم من عذابه، **وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.**

- رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ: وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ (أي): يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه،
- فَـَٔامَنَّا: أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه.
- وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم ،لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي مَنَّ عليهم بالإيمان سيمنُّ عليهم بالأمان التام.
- وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ: **يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر**، الذي به يكون العبد من الأبرار والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤ ﴾

- ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد.
- فأجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم؛ فلهذا قال:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ ﴾

- فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب، وقال:
- أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ: فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب،

- ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾: فجمعوا بين الإيمان، والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله،
- ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الله الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل،
- ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾: مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

- تَقَلُّبُ: سَعَةُ عيشٍ، وكثرة تنقُّلٍ وتَصَرُّفٍ.
- ٱلۡمِهَادُ: الفِراش.
- وهذه الآية (**196**) المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعُّمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله: متاعٌ قليل.
- متاعٌ قليل ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

- نُزُلٗا: ضيافةً، ومَنزِلاً.
- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: وأما المتقون لربهم، المؤمنون به، فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها، لهم جنات تجري

من تحتها الأنهار خالدين فيها، فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كلُّ بؤسٍ وشدَّةٍ وعَناءٍ ومشقةٍ، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة، نزراً يسيراً ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى:

- وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ: والأبرار هم الذين برّت قلوبهم، فبرّت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البَرُّ الرحيم من بِرّه أجراً عظيماً وعطاءً جسيماً وفوزاً دائماً.

﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ ﴾

- وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ: أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم، وهذا الإيمان النافع، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض.

- ولهذا لما كان إيمانهم عامًّا حقيقيًّا صار نافعاً فأحدث لهم خشية الله وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده، وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ} [فاطر : **28**].

- لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا: ومن تمام خشيتهم لله أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبيَّنوه ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل،

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ : فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه سريع الحساب، فلا يستبطئون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله فهو قريب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

- وَصَابِرُواْ: غالِبوا الأعداء بالصبر حتى تكونوا أكثرا صبراً منهم.
- وَرَابِطُواْ: أقيموا على جهاد عدوكم.
- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ: ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم **الصبر**: الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.
- **والمصابرة**: أي: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.
- **والمرابطة**: وهو لزوم المحل الذي يُخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم،
- وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ: لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.
- فعُلِم من هذا أنه **لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات**، فلم يفلح مَنْ أفلح إلا بها ولم يفت أحداً الفلاحُ إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة آل عمران.. والحمد لله على نعمته.. ونسأله تمام النعمة.

===

سورة النساء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾

- افتتحَ تعالى هذه السورةَ بالأمر بتقواه، والحثِّ على عبادتِهِ، والأمرِ بصلةِ الأرحام، والحثِّ على ذلك، وبيَّن السبب الداعيَ الموجبَ لكلٍّ من ذلك.
- وأن الموجب لتقواه: لأنه ربُّكم الذي خلقكم، ورزقكم، وربَّاكم بنعمِهِ العظيمة التي من جملتها خَلْقُكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليناسِبَها فيسكنَ إليها وتتمَّ بذلك النعمة ويحصل به السرور.
- وكذلك من الموجب الداعي لتقواه: تساؤُلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم توسَّلتم بها بالسؤال باللهِ، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يردَّ من سأله بالله. فكما عظَّمتموه بذلك، فلتعظِّموه بعبادتِهِ وتقواه.
- وكذلك الإخبار بأنه رقيبٌ: أي: مطَّلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم، وسرِّهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبتَهُ وشدةَ الحياء منه بلزوم تقواه.
- وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثَّهم في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحدٍ، ليعطِّفَ بعضَهم على بعض، ويرقِّقَ بعضَهم على بعض.
- وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حقِّ الله الذي أمر الله به.

- وتأمل كيف **افتتح هذه السورةَ بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام، والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصَّل هذه الأمور أتمَّ تفصيل من أول السورة إلى آخرها؛ فكأنها مبنيَّةٌ على هذه الأمور المذكورة، مفصِّلةٌ لما أُجْـمِلَ منها، موضِّحةٌ لما أُبْهِمَ.**
- وفي قوله: {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}: **تنبيه على مراعاة حقِّ الأزواج والزوجات والقيام به**؛ لكون الزوجات مخلوقاتٍ من الأزواج، فبينهم وبينهنَّ أقربُ نسب وأشدُّ اتصال وأوثق (وأقرب) علاقة.

﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ ﴾

- **حُوبًا: إثماً.**
- هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم، وهم صغارٌ ضعافٌ، لا يقومون بمصالحهم، فأمَرَ الرءوف الرحيم عباده أن:
  * يحسِنوا إليهم،
  * وأن لا يَقْرَبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن،
  * وأن يؤتوهم أموالهم ـ إذا بلغوا ورَشَدوا ـ كاملةً موفرةً،
  * وأن لا يتبدلوا الخبيث، الذي هو أكلُ مال اليتيم بغير حقٍّ، بالطيب، وهو الحلال الذي ما فيه حرجٌ ولا تَبِعة،
  * ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم: أي: مع أموالكم، ففيه تنبيهٌ لقبح أكل مالِهم بهذه الحالة، التي هي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله؛ فمَنْ تجرَّأ على هذه الحالة فقد أتى حوباً كبيراً: أي: إثماً عظيماً، ووزراً جسيماً.
- ومن استبدال الخبيث بالطيِّب: أن يأخذ الوليُّ من مال اليتيم النفيسِ ويجعلَ بدلَه من ماله الخسيسَ.
- **وفيه الولايةُ على اليتيم**؛ لأنَّ من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوتَ ولاية المؤتي على ماله.

- **وفيه الأمرُ بإصلاح مال اليتيم**؛ لأنَّ تمام إيتائِهِ مالَه، حفظُه والقيامُ به بما يصلحه ويُنَمِّيه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

- أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا: أقرب إلى عدم الجور.
- وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ : أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حُجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقِّهن لعدم محبتكم إياهنَّ، فاعدلوا إلى غيرهنَّ وانكحوا ما طاب لكم من النساء: أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحَسَب، والنَّسَب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهنَّ، فاختاروا على نظركم.
- ومن أحسن ما يُختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالِها ولِجمالِها ولحسبِها ولدينِها؛ فاظفرْ بذاتِ الدينِ تَرِبَتْ يمينُك» [6] .
- **وفي هذه الآية، أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارعُ النظرَ إلى مَنْ يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.**

- ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: {مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}، أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً، فليفعل، أو أربعاً، فليفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً، وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوتُه بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة ، حتى يبلغ أربعاً؛ لأن في الأربع غُنيةً لكل أحد إلا ما ندر. ومع هذا، فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الـجَوْر والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

---

[6] أخرجه البخاري (5090)، ومسلم (1466)، من حديث أبي هريرة.

- **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**: فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القَسْم في ملك اليمين.
- **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**: ذلك: أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكتِ اليمينُ، أدنى ألاَّ تعولوا: أي: تظلموا.
- وفي هذا أنَّ تعرَّضَ العبد للأمر الذي يُخافُ منه الجورُ والظلم، وعدم القيام بالواجب ولو كان مباحاً، أنه لا ينبغي له أن يتعرَّضَ له، بل يلزم السعةُ والعافيةُ، فإنَّ العافية خير ما أعطي العبد.

﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴿٤﴾ ﴾

- **صَدُقَاتِهِنَّ: مُهُورِهن.** - **نِحْلَةً: فريضة من الله.** - **هَنِيئًا مَّرِيئًا: حلالاً طيباً.**

- **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**: ولـمَّا كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهنَّ حقوقهنَّ، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً ودفعةً واحدةً يشقُّ دفعُه للزوجةِ، أمَرَهم وحثَّهم على إيتاء النساء صَدُقاتهنَّ، أي: مهورهنَّ، نِحْلَةً، أي: عن طيب نفس وحال طمأنينة، فلا تمطلوهنَّ أو تبخسوا منه شيئاً.
- **وفيه أن المهر يُدْفَع إلى المرأة إذا كانت مكلفةً، وأنها تملكه بالعقد**، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك.
- **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا**: فإن طبن لكم عن شيء منه، أي: من الصداق، نفساً، بأن سَمَحْنَ لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه،
- **فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**: أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تَبِعَة.
- **وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدةً**، فإن لم تكن كذلك، فليس لعطيَّتِها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به.

- **وفي قوله: {فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ} دليلٌ على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهيٌّ عنه كالمشركة وكالفاجرة**، كما قال تعالى: {وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ} [البقرة : **221**]، وقال تعالى: {وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} [النور : **3**].

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ ﴾

- ٱلسُّفَهَآءَ: من لا يُحسِنون التصرف في المال.
- وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا: السفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال: إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير وغير الرشيد، فنَهَى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالَهم خشيةَ إفسادها وإتلافها؛ لأنَّ الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يُـحْسِنُون القيام عليها وحفظَها، فأمر الله الولي أن لا يؤتيهم إياها؛ بل:
- وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا : بل يرزقهم منها، ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلَّق بضروراتهم وحاجاتهم الدينيَّة والدنيويَّة، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يَعِدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رُشْدِهم، ونحوِ ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطرهم.
- **وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم، من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.**
- **وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال**، لقوله تعالى: {وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ}.
- **وفيه دليلٌ على أنَّ قول الوليِّ مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة**؛ لأن الله جعله مؤتَمَناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾

- وَٱبۡتَلُواْ: اخْتَبِروا
- ءَانَسۡتُم: عَلِمتم.
- رُشۡدٗا: حُسن تصَرُّف في الأموال.
- وَبِدَارًا: مبادرة.
- حَسِيبٗا: مُحاسِباً، وشاهداً.

- الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يُدْفَعَ لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيء من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه.
- فإن استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.
- فإن تبيَّن رشدُه وصلاحُه في ماله وبلغ النكاح، فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ كاملة موفرة،
- وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا : أي: مجاوزة للحدِّ الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم،
- وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ : أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.
- وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولَّى عليهم، يرون هذه الحالَ حالَ فرصةٍ، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧ ﴾

- كان العرب في الجاهلية من جبريَّتِهم وقسوتهم لا يورِّثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال والنهب والسلب،
- فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملاً لتتوطَّن على ذلك النفوس فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوَّفت له النفوس وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال:
- لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ: أي: قسط وحصة مِّمَّا تَرَكَ: أي: مما خلَّفَ ٱلْوَٰلِدَانِ: أي: الأب والأم، وَٱلْأَقْرَبُونَ عموماً بعد خصوص.
- وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ.
- فكأنه قيلَ: هل ذلك النصيب راجعٌ إلى العُرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون، أو شيئاً مقدَّراً؟ فقال تعالى: {نَصِيبًا مَّفْرُوضًا}: أي: قد قدَّره العليم الحكيم. وسيأتي إن شاء الله تقدير ذلك.
- وأيضاً فهنا توهُّم آخر: لعل أحداً يتوهَّم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: {مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ}. فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

- وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال:
- وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ: أي: قسمة المواريث،
- أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ: أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله تعالى: {ٱلْقِسْمَةَ}؛ لأن الوارثين من المقسوم عليهم،
- وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ: أي: المستحقون من الفقراء،

- **فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ**: أي: أعطوهم ما تيسَّر من هذا المال الذي جاءكم بغير كدٍّ ولا تعب ولا عَناءٍ ولا نَصَبٍ، فإنَّ نفوسَهم متشوفةٌ إليه، وقلوبَهم متطلعةٌ، فاجبُروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم.
- **ويؤخذ من المعنى أنَّ كل مَنْ له تطلُّع وتشوُّف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطِيَهُ منه ما تيسَّر**، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه، فليُجْلِسْه معه، فإن لم يُجْلِسْه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين**» [7]، أو كما قال.
- وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم؛ أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَبَرَّكَ عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه [8] ذلك؛ علماً منه بشدة تشوفه لذلك.
- وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك لكونه حقَّ سفهاء أو ثَمَّ أهمُّ من ذلك، فليقولوا لهم {قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا}، يردُّونهم ردًّا جميلا بقولٍ حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ ﴾

- **قيل: إن هذا خطاب لمن يحضُرُ من حَضَرَهُ الموت، وقد أجنف في وصيته**، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله تعالى: {وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا}، أي: سداداً موافقاً للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبُّون معاملةَ أولادهم بعدهم.
- **وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف**، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم مِنْ ذُرِّيَّتهم الضعاف، والدليل

---

[7] أخرجه البخاري (5460)، ومسلم (1663)، وللحديث طرق كثيرة بألفاظ متقاربة. انظر: «الصحيحة» للألباني (1042 و 1043 و 1285 و 1297).

[8] أخرجه مسلم (1373) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: {فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ}: في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

- ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعَّد على ذلك أشد العذاب، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

- وَسَيَصْلَوْنَ: سيُدْخَلُون.
- إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا: أي: بغير حق، **وهذا القيد يخرُجُ به ما تقدَّم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى.**
- فمن أكلها ظُلماً، فإنما يأكلون في بطونهم ناراً.
- إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا: أي: فإنَّ الذي أكلوه نار تتأجَّج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوه في بطونهم.
- وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا: أي: ناراً محرقة متوقدة. **وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقُبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدلَّ ذلك أنها من أكبر الكبائر.** نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ

تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾

أحكام المواريث - وبيان أصحابها

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هنَّ آيات المواريث المتضمِّنة لها، فإنَّها، مع حديث عبدالله بن عباس الثابت في صحيح البخاري: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر** »[9] مشتملاتٌ على جُلِّ أحكام الفرائض، بل على جميعها - كما سترى ذلك - إلاَّ ميراث الجدات فإنه غيرُ مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في «**السنن**»[10] عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

(1) بيان ميراث الأولاد:

- قال تعالى: {يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ}.
- يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ : أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، فتعلِّمونهم وتؤدِّبونهم وتكفُّونهم عن المفاسد، وتأمرونَهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام، كما قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ} [التحريم : 6].
- فالأولاد - عند والِديهم - موصىً بهم، فإمَّا أن يقوموا بتلك الوصية فلهم جزيل الثواب، وإمَّا أن يضيِّعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. **وهذا مما يدلُّ على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالِدين**، حيث أوصى الوالِدينِ مع كمال شفقتهم عليهم.

[9] أخرجه البخاري (6737)، ومسلم (1615) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[10] أخرجه أبو داود (2894)، والترمذي (2101)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (361/8)، وابن ماجه (2724) قال الحافظ في «التلخيص» (82/3): «إسناده صحيح لثقة رجاله إلاّ أن صورته مرسل؛ فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق». انظر «الإرواء» (1680).

- ثم ذكر كيفية إرثهم، فقال: {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ} أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظِّ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحبُ فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك.
- وأنه مع وجود أولاد الصلب فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء حيث كان أولاد الصلب ذكوراً وإناثاً، هذا مع اجتماع الذكور والإناث.
- وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث. وقد ذكره بقوله: {فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ......}

(2) أحكام البنات في الميراث:

- قال تعالى: {فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ}.
- فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ، أي: بنات صلب، أو بنات ابن ثلاثاً فأكثر، فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ.
- وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً : أي: بنتاً، أو بنت ابن، فَلَهَا ٱلنِّصْفُ. **وهذا إجماع.**
- بقي أن يُقال: **من أين يُستفاد أنَّ للابنتين الثِّنْتَيْنِ الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟** فالجواب:

* أنه يستفاد من قوله تعالى: {وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ}، فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف، ولا ثَمَّ بعده إلا الثلثان.
* وأيضاً، فقوله: {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ}، إذا خلَّفَ ابناً وبنتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدلَّ ذلك على أن للبنتين الثلثين.
* وأيضاً، فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أختها - فأخْذُها له مع أختها من باب أولى وأحرى.
* وأيضاً، فإن قوله تعالى في الأختين: {فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ} نصٌّ في الأختين الثنتين، فإذا كان الأختان الثنتان مع بُعْدِهُما يأخذان الثلثين، فالابنتان مع

قربهما من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبيُّ صلى الله عليه وسلم ابنتي سعد الثلثين؛ كما في «الصحيح» [11] .

- بقي أن يُقال: **فما الفائدة في قوله: {فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ}؟** قيل: الفائدة في ذلك -والله أعلم- أنه لِيُعْلَمَ أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين؛ بل من الثنتين فصاعداً.
- **ودلت الآية الكريمة على:**

* إذا وُجِدَ بنتُ صلبٍ واحدة وبنتُ ابن أو بناتُ ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملةَ الثلثين.
* ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتي أَنْزَلُ منها.

- **وتدلُّ الآية على:** أنه متى استغرقَ البناتُ أو بناتُ الابن الثلثين: أنه يسقُطُ من دونهنَّ من بنات الابن، لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم، فلو لم يسقطن، لزم من ذلك أن يفرضَ لهنَّ أزيدُ من الثلثين، وهو خلاف النص.
- وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد.
- ودل قوله: {مِمَّا تَرَكَ}: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم.

(3) أحكام الأبوين في الميراث:

- قال تعالى: {وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ}.
- وَلِأَبَوَيْهِ: أي: أبوه وأمه.
- لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ: أي: ولد صلب، أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً. فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

---

[11] بنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما يوم أحد، وقضى رسول الله (ص) لهما بالثلثين: أخرجه أبو داود (2892)، والترمذي (2092)، والحاكم (333/4) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر «الإرواء» (1677).

(4) أحكام الأب في الميراث:

- قال تعالى: {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ}.
- وأما الأب، فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس.
- فإن كان الولد أنثى أو إناثاً، ولم يبق بعد الفرض شيء، كأبوين وابنتين، لم يبق له تعصيب.
- وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضاً والباقي تعصيباً، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما.
- فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ: أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدَّر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب. وعُلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرضَ له، بل يرث تعصيباً المالَ كلَّه، أو ما أبقت الفروض.
- لكن لو وُجِدَ مع الأبوين أحدُ الزوجين، ويعبَّر عنهما **بالعمريَّتين**، فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذلك قوله: {وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ}، أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين:
  * إما سدس في زوج وأم وأب،
  * وإما ربع في زوجة وأم وأب،
- فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملاً مع عدم الأولاد حتى يقالَ: إنَّ هاتين الصورتين قد اسْتُثنِيتا من هذا.
- ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.
- ولأنَّا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

- فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ:
- إخوة: إثنان فأكثر.
- إخوة أشقاء أو لأب أو لأم، ذكوراً كانوا أو إناثاً، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد.
- لكن قد يُقال: ليس ظاهر قوله: {فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ} شاملاً لغير الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحِكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفَّر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم، ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.
- ويشكل على ذلك إتيان لفظ "**الإخوة**" بلفظ الجمع، وأجيب عن ذلك بأن **المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان**، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: {وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ} [الأنبياء : **78**]، وقال في الإخوة للأم: {**وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ**} [النساء : **12**]: **فأطلق لفظ الجمع، والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع.**
- فعلى هذا، لو خلَّف أمًّا وأباً وإخوةً، كان للأم السدس والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث مع حجب الأب إياهم، إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي للأب.
- ثم قال تعالى: {مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ}: أي: هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقها الورثة.
- وقدم الوصية - مع أنها مؤخرة عن الدَيْن - للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقًّا على الورثة، وإلاَّ فالديون مقدَّمة عليها، وتكون من رأس المال.
- وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

- قال تعالى: {ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا}: فلو رُدَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لِنَقْصِ العقولِ وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.
- {فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا}: أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً، وأحكم ما شرعه، وقدَّر ما قدَّره على أحسن تقدير لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

(5) حكم الزوج والزوجات في الميراث:

- قال تعالى: {وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ}.
- وَلَكُمۡ: أيها الأزواج. - وَلَدٞ: ابنٌ أو بنتٌ.
- ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب أو ولد الابن، الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً.

(6) بيان معنى "الكلالة" ونصيبها في الميراث:

- قال تعالى: {وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ}
- كَلَٰلَةً: من ليس له وَلدٌ، ولا وَالِدٌ.

- وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ: أي: من أم، كما هي في بعض القراءات، **وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم.**
- فإذا كان يورث كلالة، أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن، وإن نزلوا، وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد،
- فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ: أي: فلكل واحد من الأخ والأخت السدس.
- فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ: أي: فإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء في الثلث، أي: لا يزيدون على الثلث، ولو زادوا عن اثنين.
- **ودل قوله: {فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ}:** أن ذَكَرهم وأُنْثاهم سواء؛ لأن لفظ "**الشريك**" يقتضي التسوية.
- **ودل لفظ "الكلالة" على:** أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة. فلو لم يكن يورث كلالة لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.
- **ودل قوله: {فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ}:**
- أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة **بالحمارية**، وهي: زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء، للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرق الله حكمه.
- وأيضاً، فإن الإخوة للأم أصحاب فروض والأشقاء عصبات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»** وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.
- وأما **ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب** فمذكور في قوله: {يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ...} الآية [النساء : **176**]:

* فالأخت الواحدة، شقيقة أو لأب لها النصف،

* والثنتان لهما الثلثان،
* والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات للأب وهو السدس تكملة الثلثين،
* وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين تسقط الأخوات للأب، كما تقدم في البنات وبنات الابن،
* وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

⇦ **فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمُبَعَّض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أُمٍّ، والعَوْل، والردِّ، وذوي الأرحام، وبقية العَصَبة، والأخوات لغير أم، مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يَعْسُرُ فهمُها على غير المتأمل تدلُّ على جميع المذكورات،** (وهي كالتالي):

(7) حكم القاتل واختلاف دين الميت وأقربائه:

- فأما **القاتل والمخالف في الدين**، فيُعْرَفُ أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسَبِ قربهم ونفعهم الديني والدنيوي، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: {لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا}.
- وقد عُلِمَ أن القاتلَ قد سعى لمورثه بأعظم الضَّرر، فلا ينتهضُ ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذي هو ضد النفع الذي رُتِّبَ عليه الإرثُ، فُعِلمَ من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: {وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ} [الأنفال: **75**]، مع أنه قد استقرَّتِ القاعدة الشرعية أن: "**من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه**".
- وبهذا ونحوه يُعْرَفُ أن المخالف لدين الموروث لا إرثَ له، وذلك أنه قد تعارض الموجبُ الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبةُ للمباينة من كلِّ وجه، فقوي المانع، ومنع موجِبَ الإرث، الذي هو النسب، فلم يعمل الموجِبُ لقيام المانع.

- يوضِّحُ ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقلَ مالُهُ إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: **وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ** } إذا اتَّفقت أديانُهم، وأما مع تبايُنِهِم فالأخوَّةُ الدينيةُ مقدَّمة على الأخوَّة النسبيَّة المجرَّدة.
- قال **ابن القيم** في **«جلاء الأفهام»** [12] : «وتأمَّل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه سبحانه التوارثَ فيها بلفظِ الزوجة دون المرأةِ، كما في قوله تعالى: {**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ**} ففيه إيذانٌ بأن هذا التوارثَ إنَّما وقع بالزوجيةِ المقتضيةِ للتشاكل والتناسب، والمؤمِنُ والكافر لا تشاكلَ بينهما ولا تناسبَ، فلا يقع بينهما التوارثُ، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين». انتهى.

(8) حكم الرقيق في الميراث:

- وأما **الرقيق**، فإنه لا يَرِثُ ولا يُوَرِّث.
- أما كونه لا يُوَرِّث فواضحٌ، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده.
- وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبيٌّ من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ}، وقوله تعالى: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ }، وقوله تعالى: { فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ } .... ونحوها لمن يتأتَّى منه التملُّك، فأما الرقيق فلا يتأتَّى منه ذلك، فعُلِمَ أنه لا ميراث له.
- وأما **مَن بعضُهُ حرٌّ وبعضُهُ رقيقٌ فإنَّه تتبعَّض أحكامُه**:
  * فما فيه من الحرية يستحقُّ بها ما رتبه الله في المواريث لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملُّك، وما فيه من الرقِّ فليس بقابل لذلك.
  * فإذاً يكون المبَعَّض يرث ويورِّث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً ومذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

[12] (ص347 ، تحقيق مشهور بن حسن، ط دار ابن الجوزي).

(9) حكم الخنثى والمشكل في الميراث:

- وأمَّا **الخنثى**، فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريَّته أو أنوثيَّته أو مشكلاً.
- **فإن كان واضحاً** فالأمر فيه واضحٌ:
  * إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم.
  * وإن كانت أنثى فلها حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن.
- **وإن كان مشكلاً**:
  * فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم - فالأمر فيه واضح.
  * وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريَّته وبتقدير أنوثيَّته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسُّط بين الأمرين وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: {**ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ**} [المائدة : **8**]، وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، ولا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها، فاتقوا الله ما استطعتم.

(10) ميراث الجد:

- وأما **ميراث الجد** مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟
- فقد دلَّ كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه [13]، وأن الجد يحجب الإخوة، أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأبُ،
- وبيان ذلك أن الجد أبٌ في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: {**إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ**...} الآية [البقرة : **133**]، وقال يوسف عليه السلام: {**وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ**} [يوسف : **38**]، فسمَّى الله الجدَّ وجدَّ الأب أباً، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه (أي: عند عدمه).

---

[13] انظر «فتح الباري» (19/12).

- وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجدَّ حكمُهُ حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بين الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر أحكام المواريث، فينبغي أيضاً أن يكون حكمُهُ حكمَهُ في حجب الإخوة لغير أم.
- وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلِمَ لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه، فلِمَ لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورِّث الإخوة مع الجدِّ نصٌّ، ولا إشارة، ولا تنبيه، ولا قياس صحيح.

(11) العَوْل وأحكامه:

- وأمَّا **مسائل العَوْل** فإنه يُستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدَّر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضاً، أو لا:
- فإن حجب بعضهم بعضاً، فالمحجوب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئاً.
- وإن لم يحجب بعضهم بعضاً، فلا يخلو:
  * إما أن لا تستغرق الفروض التركة،
  * أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص،
  * أو تزيد الفروض على التركة،
- ففي الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضَه كاملاً. وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركة، فلا يخلو من حالين:
  * إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيحٌ بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية،
  * وهو أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعُلِم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

(12) بيان أحكام الرد على أصحاب الفرائض:

- وبعكس هذه الطريقة بعينها يُعْلَمُ **الردُّ**:
- فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضُهم التركة، وبقي شيءٌ ليس له مستحقٌّ من عاصبٍ قريب ولا بعيد، فإن ردَّه على أحدهم ترجيح بغير مرجِّح، وإعطاءه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جَنَفٌ وميل ومعارضة لقوله: {وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ} [الأنفال: 75]، فتعيَّن أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم.

(13) حكم الرد على الزوجين في الميراث:

- ولما كان الزوجان ليسا من القرابة لم يستحقا الزيادة على فرضهم المقدَّر - عند القائلين بعدم الرد عليهما -، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد، فالدليل المذكور شامل للجميع، كما شملهم دليل العول.

(14) حكم ذوي الأرحام في الميراث:

- وبهذا يُعْلَمُ أيضاً **ميراث ذوي الأرحام**:
- فإنَّ الميت إذا لم يخلِّف صاحب فرض ولا عاصباً، وبقي الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المُدْلين بالورثة المجمع عليهم، تعيّن الثاني.
- ويدل على ذلك قوله تعالى: {وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ}، فصرفه لغيرهم تركٌ لمن هو أولى من غيره، فتعيَّن توريثُ ذوي الأرحام،
- وإذا تعيَّن توريثُهم، فقد عُلِمَ أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب، فينزَّلُون منزلة من أدْلَوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

(15) بيان من هم عصبة الميت وحكمهم في الميراث:

- وأمّا **ميراث بقية العَصَبَة**، كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم... إلخ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»**، وقال تعالى: {**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ**} [النساء : **33**].
- فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيءٌ لم يستحق العاصب شيئاً.
- وإن بقي شيءٌ أخذه أولي العَصَبَة بحسب جهاتهم ودرجاتهم.

(16) جهات العصبة:

- فإنَّ **جهات العصوبة خَمْسٌ**:
- البنوة، ثمَّ الأبوة، ثمَّ الأخوة وبنوهم، ثمَّ العمومة وبنوهم، ثمَّ الولاء.
- فيُقَدَّم منهم الأقرب جهة.
- فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة.
- فإن كانوا في منزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق.
- فإن تساووا من كل وجه اشتركوا. والله أعلم.
- وأمَّا كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات، يأخذن ما فضل عن فروضهنَّ، فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يَسْقُطْن بالبنات، فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهنَّ، فإنه يُعطى للأخوات ولا يُعْدَلُ عنهنَّ إلى عَصَبَةٍ أبعد منهن كابن الأخ والعم ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

- تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ: أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في المواريث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، **وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة**

بتقديره تعالى أنصباء الوارثين. ثم قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ}، فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هذا التعدي، مع قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا وصيةَ لوارث**» [14] .

- وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ: ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فقال: {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ} بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها.
- يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا: فمن أدَّى الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار.
- وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ : الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾

- ومن يعص الله ورسوله... إلخ، **ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي**، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي، فإنَّ الله تعالى رتَّب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه دخل النار وخُلِّد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

[14] جاء عن جماعة كثيرة من الصحابة: أخرجه أحمد (267/5)، وأبو داود (3565)، والترمذي (2120)، وابن ماجه (2712)، والنسائي (128/2)، وغيرهم، وصححه الألباني في «الإرواء» (1655).

- وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحِّدين الذين معهم طاعةُ التوحيد غيرُ مخلَّدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿ وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾

- ٱلۡفَٰحِشَةَ: الفِعْلَة القبيحة، وهي الزِّنَى.
- وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ: أي: النساء اللاتي يأتين الفاحشة، أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها،
- فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ: أي: من رجالكم المؤمنين العدول.
- فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ: أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً، فإن الحبس من جملة العقوبات.
- حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ: أي: هذا منتهى الحبس.
- أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا: أي: طريقاً غير الحبس في البيوت.
- **فهذه الآية ليست منسوخة وإنَّما هي مُغَيَّاة إلى ذلك الوقت**، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

- وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا: وكذلك اللذان يأتيانها، أي: الفاحشة، منكم، أي: من الرجال والنساء، فآذوهما بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هذه الفاحشة.

- فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذَوْن، والنساء يُحْبَسْن ويؤذين؛ فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح. ولهذا قال:
- فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ: فإن تابا، أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه وعزما أن لا يعودا، وأصلحا العمل الدالَّ على صدق التوبة، فأعرضوا عنهما، أي: عن أذاهما.
- إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا: أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان - الذي من إحسانه - وفَّقهم للتوبة وقبلها منهم وسامحهم عن ما صدر منهم.
- **ويؤخذ من هاتين الآيتين (15 و 16):**
- أن بَيِّنة الزنا (لابُدَّ) أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم، لأن الله تعالى شدَّد في أمر هذه الفاحشة ستراً لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا مع دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومىء إليه هذه الآية: لما قال: {**فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ**}، لم يكتف بذلك حتى قال: {**فَإِن شَهِدُواْ**}، أي: لا بدَّ من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عِياناً من غير تعريض ولا كناية.
- ويؤخذ منهما أن الأذِّية بالقول والفعل والحبس قد شرعه الله تعزيراً لجنس المعصية التي يحصل به الزجر.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

- بِجَهَٰلَةٍ: بسَفَه، وكل من عصى الله فهو جاهل.
- مِن قَرِيبٍ: قبل معاينة الموت.

- **إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ**: توبة الله على عباده نوعان: توفيقٌ منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد.
- فأخبر هنا أن التوبة المستحقَّة على الله حقًّا أَحقَّه على نفسه كرماً منه وجوداً لمن عمل السوء؛ أي: المعاصي، **بجهالة**، أي:
  * جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه،
  * وجهل منه لنظر الله ومراقبته له،
  * وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه.
  * فكل عاصٍ لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرطٌ لكونها معصيةً معاقَب عليها.
- **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ**: يُحتمل أن يكونَ المعنى:
  * ثمَّ يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً، وأما بعد حضور الموت فلا يُقْبَلُ من العاصين توبةٌ ولا من الكفار رجوعٌ، كما قال تعالى عن فرعون: {**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ**} [يونس : **90**]، وقال تعالى: {**فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ * فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ**} [غافر : **84-85**]، وقال هنا: {**وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**} (أي: المعاصي فيما دون الكفر) {**حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا**} [النساء : **18**]، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبةُ اضطرارٍ لا تنفع صاحِبَها، إنما تنفع توبةُ الاختيار.
  * ويُحتمل أن يكون معنى قوله: {**مِن قَرِيبٖ**}، أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أنَّ مَن بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه

فإنَّ اللّه يتوبُ عليه، بخلاف من استمرَّ على ذنبه (ذنوبه) وأصرَّ على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة فإنه يَعْسُرُ عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفَّق للتوبة ولا ييسَّر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم قائم (علم تام) ويقين متهاون (ويتهاون) بنظر اللّه إليه، فإنه يسدُّ على نفسه باب الرحمة.

- نعم، قد يوفِّق اللّهُ عبده المصرَّ على الذنوب -عن عمد ويقينٍ- للتوبة النافعة التي يمحو بها ما سَلَفَ من سيئاته وما تقدَّم من جناياتِهِ، ولكنَّ الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، فمن علمِهِ أنه يعلم صادقَ التوبة وكاذبَها، فيجازي كلاًّ منهما بحسب ما استحقَّ بحكمتِهِ، ومن حكمته أن يوفِّق من اقتضت حكمتُهُ ورحمتُهُ توفيقَه للتوبة، ويخذلَ من اقتضت حكمتُهُ وعدلُهُ عدم توفيقه. واللّه أعلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾

- وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ: لا تمسكوهن مضارِّين لهن.
- كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبُهُ كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحقُّ بزوجته من كل أحدٍ وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت. فإن أحبَّها تزوجها على صداق يحبُّه دونها، وإن لم يرضها عَضَلَها فلا يزوِّجها إلاَّ مَن يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها.
- وكان الرجل أيضاً يعضُلُ زوجته التي يكون يكرهُها ليذهبَ ببعض ما آتاها.
- فنهى اللّه المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين:
  * إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهومُ قولِهِ: {كَرۡهٗا}.

* وإذا أتَيْنَ بفاحشة مبيِّنةٍ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضُلَها عقوبةً لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

- ثم قال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ}: وهذا **يشمل المعاشرة القوليَّة والفعليَّة**، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة، وكفِّ الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، **ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما**، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثلِهِ لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

- فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا : أي: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تُمْسِكوا زوجاتِكم مع الكراهة لهنَّ، فإنَّ في ذلك خيراً كثيراً:

* من ذلك امتثالُ أمر الله وقَبولُ وصيَّته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

* ومنها: أن إجباره نفسه - مع عدم محبَّته لها - فيه مجاهدةُ النفس والتخلُّق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلُفُها المحبةُ كما هو الواقع في ذلك، وربما رُزِقَ منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة.

- وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإنْ كان لا بدَّ من الفراق وليس للإمساك محلٌّ، فليس الإمساك بلازم؛ بل قال تعالى:

﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ ﴾

- قِنطَارٗا: مالاً كثيراً.
- بُهۡتَٰنٗا: كذباً وظلماً.

- فإنْ كان لا بدَّ من الفراق وليس للإمساك محلٌّ، فليس الإمساك بلازم؛ بل متى أردتم استبدال زوج مكان زوج، أي: تطليق زوجة وتزوُّج أخرى، فلا جُناح عليكم في ذلك ولا حرج، ولكن إذا آتيتم إحداهن، أي: المفارِقة أو التي تزوجها، قنطاراً، أي: مالاً كثيراً، فلا تأخذوا منه شيئاً، بل وفِّروه لهن ولا تَمْطُلوا بهنَّ.

- **وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في تخفيف المهر،** ووجه الدلالة أنَّ الله أخبر عن أمر يقعُ منهم ولم ينكِرْه عليهم، فدل على عدم تحريمه.
- لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحةٍ تقاوم.
- ثم قال: {أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا}، فإنَّ هذا لا يحلُّ، ولو تحيَّلتم عليه بأنواع الحيل فإن إثمه واضح. وقد بيَّن تعالى حكمة ذلك بقوله:

﴿ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ ﴾

- أَفۡضَىٰ: استمتع بالجماع.
- وبيان ذلك أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمةٌ على الزوج، ولم ترضَ بحلِّها له إلا بذلك المهر الذي يدفعُهُ لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل ذلك والتي لم ترض ببذلها إلاَّ بذلك العوض، فإنَّه قد استوفى المعوَّض، فثبت عليه العِوَض، فكيف يَسْتَوفي المعوَّض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور.
- وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

- وَمَقۡتٗا: بغيضا يمقت الله فاعله.
- سَبِيلًا: طريقاً.

- وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ: أي: لا تتزوَّجوا من النساء ما تزوَّجهنَّ آباؤكم، أي: الأب وإن علا.
- إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا: أنه كان **فَٰحِشَةٗ**، أي: أمراً قبيحاً يفحُش ويعظُمُ قبحُهُ، **وَمَقۡتٗا** من الله لكم، ومن الخلق؛ بل يَمْقُتُ بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه مع

الأمر ببرِّه. **وَسَآءَ سَبِيلًا**، أي: بئس الطريق طريقاً لمن سلكه لأنَّ هذا من عوائد الجاهلية التي جاء الإسلام بالتنزُّه عنها والبراءة منها.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

- وَرَبَٰٓئِبُكُمُ: بنات نسائكم اللاتي يتربَّيْن غالبا في بيوتكم.
- وَحَلَٰٓئِلُ: زوجات.
- هذه الآيات الكريمات (الآية **23** والآية **24**) مشتملاتٌ على: المحرَّمات بالنسب، والمحرَّمات بالرضاع، والمحرَّمات بالصهر، والمحرَّمات بالجمع، وعلى المحلَّلات من النساء.

(1) فأما **المحرمات في النسب**، فهنَّ **السبعُ** اللاتي ذكرهنَّ الله:

1. الأمُّ: يدخل فيها كلُّ من لها عليك ولادةٌ وإن بَعُدَتْ.
2. البنت: ويدخل في البنت كلُّ من لك عليها ولادة.
3. والأخوات الشقيقات أو لأبٍ أو لأمٍ.
4. والعمة: كلُّ أختٍ لأبيك أو لجدِّك وإن علا.
5. والخالة: كلُّ أخت لأمِّك أو جدَّتك وإن علت وارثة أم لا.
6. وبناتُ الأخ وإن نزلن.
7. وبناتُ الأخت وإن نزلن.

فهولاء هنَّ المحرَّمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نصُّ الآية الكريمة، وما عداهنَّ فيدخُلُ في قولِهِ: {**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ**}، وذلك كبنت العمَّة والعمِّ وبنت الخال والخالة.

(2) وأما **المحرَّمات بالرَّضاع** ، فقد ذكر الله منهنَّ الأمَّ والأخت،

- وفي ذلك تحريم الأم مع أنَّ اللبن ليس لها إنَّما هو لصاحب اللبن، دلَّ بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع.
- فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرعٌ عنهما، كأخوتهما وأصولهما وفروعهما،
- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«يحرُمُ من الرَّضاع ما يحرُمُ من النسب»** [15] فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومَن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب وفي الطفل المرتضع إلى ذريَّته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاعُ خمسَ رَضَعات في الحولين؛ كما بيَّنته السُّنَّة.

(3) وأما **المحرمات بالصهر** فهنَّ **أربع**:

1. حلائل الآباء وإن علوا.
2. وحلائل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين.
3. وأمهات الزوجة وإن علون.

فهؤلاء الثلاث يَـحْرُمْنَ بمجرَّد العقد.

4. والرابعة الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرُمُ حتى يدخلَ بزوجتِهِ، كما قال هنا: {وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ...} الآية.

وقد **قال الجمهور**: إن قوله: {ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم}: قيدٌ خَرَجَ بمخرَج الغالب لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرُمُ ولو لم تكن في حجره، ولكن **للتقييد بذلك فائدتان**:

* إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.
* والثانية: فيه دلالة على جواز الخَلْوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

---

[15] أخرجه البخاري (2645)، ومسلم (1447) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(4) وأمّا **المحرمات بالجمع** :

- فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرَّمه،
- وحرَّم النبي صلى الله عليه وسلم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها [16]،
- فكل امرأتين بينهما رحمٌ محرَّم، لو قُدِّرَ إحداهُما ذكراً والأخرى أنثى حَرُمَتْ عليه، فإنه يحرُمُ الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

==

تم بفضل الله تفسير الجزء الرابع من القرآن الكريم..

[16] كما في «صحيح البخاري» (5110)، ومسلم (1408) من حديث أبي هريرة.